الجانب الصوفي
في الفلسفة الاسلامية

للدكتور ابراهيم بيومي مدكور
مدرس الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب

تتمة

— ٦ —

وقبل أن نختم بحثنا هذا نقول كلمة مختصرة في أثر هذه النظرية في الفلسفة المدرسية اليهودية والمسيحية ، وفي بعض فلاسفة العصور الحديثة ، وفلسفة اليهود في القرون الوسطى ، أو بعبارة أدق الدراسة اليهودية الفلسفية في ذلك العهد هي في الواقع صدى للفلسفة الاسلامية [1] ، واليهود هم خلفاء العرب على تراث أرسطو والفلاسفة الآخرين ، وقد فازت الفلسفة على أيديهم منذ القرن الثالث عشر الميلادي فوزا عظيما ، وأضحوا أنصارها طوال القرون الثلاثة التالية حين خذلتها الشعوب الأخرى ، فأخذوا الأفكار العربية أو المعربة ونقلوها إلى لغتهم وتدارسوها فيما بينهم ، وتتلمذوا لفلاسفة الاسلام تلمذة صادقة مخلصة ، ودون أن نستقصي هنا كل مفكريهم نكتفي بأن نشير إلى شيخهم الأعظم وأستاذهم الأكبر موسى بن ميمون الذي يعد بحق الممثل الأول للفلسفة اليهودية المدرسية ، وإذا ما ذكر ابن ميمون ذكرت الفلسفة الاسلامية على الفور ، فقد اعتنق كل نظرياتها تقريباً ، وصادفت نظرية السعادة بوجه خاص من نفسه هوى ، ووجد فيها مجالاً فسيحاً للتوفيق بين الفلسفة والدين ، فهو يعتقد أن البحث والثقافة سبيل الكمال الانساني ، وأن العلم هو العبادة الحق التي يستطيع العبد التقرب بها إلى ربه وكشف الحقائق الغامضة ؛ وكلما أمعن الانسان في الدراسة والنظر كلما ازداد قرباً من ربه ، ويشبه ابن ميمون الخالق والخلق في رتبهم المختلفة بملك عظيم يسكن قصر منيفاً في مدينة كبيرة ، وسكان هذه المدينة بين المعجب بهذا القصر المصوب النظر اليه ، والغافل عنه المعرض عن جماله وجلاله ، ومن فتنوا به قد يدفعهم الشوق إلى السعي نحوه والطواف حول جدرانه الفخمة ، وربما اقتحموا عتبته وانسابوا إلى حدائقه وأفنيته الملأى بالأزهار والرياحين والمناظر البهجة ، ومنهم من يقنع بهذه الغاية ولا يطلب وراءها مزيدا ، وذوو النفوس السامية والهمم العالية يأبون إلا التشرف بالمليك في حضرته والاصغاء إلى حديثه والتمتع برؤيته ، وحينذاك يحظون بالغبطة الدائمة والنعيم المقيم [1] ، وواضح أن هؤلاء السائلين في الحضرة الملكية هم من فازوا بالسعادة الفارابية ، والمليك الذي يرمز اليه ابن ميمون ليس شيئاً آخر سوى العالم الروحاني الذي نسعى إلى الاتصال به

تأثر فلاسفة القرون الوسطى المسيحيون كذلك بكثير من الآراء الفلسفية الاسلامية ، ولم يكن التصوف الفارابي بوجه خاص بالغريب عليهم ، ذلك لأن المسيحية نفسها تشايع الأفكار الصوفية في جملتها وتدعو إلى قدر منها غير قليل ، وإذا كانت الأشياء كلها صادرة من الله وعائدة إليه فخطيئة عظمى أن ينسى المخلوق خالقه أو أن يتراخى في السعي نحوه والقرب منه . على أن الوصول إلى الذات الأقدس ليس بالسير في رأي المتصوفين المسيحيين ، فانا ندنو من الله كلما خففنا أحمالنا وأعرضنا عن

(١) مدكور ، الرسالة ، العدد ٩١ ، ص ٤٩٥

والوسائل المخربة التي ترتكب خلال الحرب الاسبانية؛ وقد لفتت نظرها فظائع موقعة القصر الأخيرة ، وما أصاب القصر من حرق وتخريب ، فأخذت تنوه بهذه الخسارة الأثرية وبالخطر الداهم الذي يهدد تراث أسبانيا الأثري والفني من جراء هذه الحوادث ؛ وعلى أثر ذلك ارتفع صوت متدوب بوليفيا في أرجاء عصبة الأمم بمثل هذا النذير

وها نحن أولاء نردد هذا النذير بدورنا؛ ونحن على يقين من أنه سيحدث صداه وأثره في جميع الهيئات العلمية والثقافية في الأمم العربية والاسلامية ؛ وإذا كانت بوليفيا ، تلك الجمهورية النائية في أعماق أمريكا الجنوبية قد حفزتها البواعث التاريخية والانسانية على أن توحي لمندوبها أن يلقي نداءه أمام عصبة الأمم ، فأولى وأجدر بالأمم الاسلامية أن تلبي داعي الواجب والمساهمة في هذا المسعى الكريم الذي يبذل صوناً لتراث الاسلام في أسبانيا؟

محمد عبد الله عنان

(١) موسى بن ميمون ، دلالة الحائرين ؛ ج ٣ ؛ ص ٤٣٣ وتوابعها

شواغل الحياة [١] ، وقد كتب المسيو جلسون أستاذ الفلسفة المدرسية المسيحية الآن فى « كلويج دى فرنس » ؛ وهو الحجة فى هـذا الباب فصلاً ممتعاً فى نظرية الحب المسيحية وأبان ما انطوت عليه من مدلولات خفية ونزعات صوفية [٢] ، ومحبة الله هى السبيل الذى يقربنا منه ويقودنا إلى السعادة الفارابية ، ويجب أن نضيف إلى هـذا أن السعادة التى تعشقها الفارابى تعتمد على قوة أخرى وتستمد نفوذاً آخر من سلطان عظيم ، ألا وهو سلطان أرسطو الذى استولى على القرون الوسطى المسيحية استيلاء تاماً منذ القرن الثالث عشر للميلاد . فان هـذه السعادة أشبه ما يكون « بالأديمونيا » الأرسطية ؛ وقد أسلفنا القول فيما بينهما من صلة [٣] . لذلك لم يتردد كثير من أنصار أرسطو المسيحيين فى اعتناق هذه النظرية وإن حاربوا فى عنف غيرها من آراء الفلاسفة المسلمين . فألبير لجراند وسان توماس يتحدثان عن عقل مقدس Intellectus sanctus هو فى الغالب ابن « للروح القدسية » التى أشاد بذكرها الفارابى من قبل [٤] . وسان توماس يقرر فى وضوح أن سرور النفس وغبطتها تنحصر فى تأمل الحقائق الأزلية [٥] . فالسعادة الفارابية أثرت إذن فى يهود القرون الوسطى ومسيحيها على السـواء ، وليس بعزيز علينا أن نبين المصدر الذى أخذ عنه المسيحيون هذه النظرية ، فقد قرأوا عنها شيئاً فيما ترجم من رسائل الفارابى إلى اللاتينية ووقفوا عليها مفصلة فى مؤلفات ابن سينا وابن رشد وفى كتاب موسى بن ميمون المشهور « دلالة الحائرين » الذى استقى منه الغرب كثيراً من الأفكار الشرقية

* * *

لم يقف أثر هذا الكتاب فى نشر الأفكار الاسلامية عند القرون الوسطى ، بل جاوزها إلى العصور الحديثة ، وذلك أنا نجد لدى واحد كاسبينوزا أو لَيْبنتز آراء كثيرة الشبه بآراء فلاسفة الاسلام : فنظرية النبوة عند الأول تشبه شبها عظيما النظرية التى أخذ بها الفارابى ؛ ومشكلة العناية عند الثانى لا تختلف كثيراً عما قال به ابن سينا من قبل [١] . ربما يبدو غريباً أن نحاول إثبات علاقة بين مفكرى الاسلام وهؤلاء الفلاسفة المحدثين ، خصوصاً وقد جرت عادة مؤرخى الفلسفة الاسلامية أن يقفوا بها عند القرون الوسطى . وما فكر واحد منهم ، فيما أعلم ، أن يدرس الصلة بينها وبين فلسفة العصور الحديثة دراسة منظمة . غير أنا نرى أن هذه الصلة جديرة بالبحث والدرس ومعتمدة على أسس تعززها ؛ فقد عرف اسبينوزا كتاب دلالة الحائرين وعنى به عناية كبيرة ، كما عرفه ليبنتز وأثنى عليه ثناء مستطاباً [٢] فعلى ضوء هـذا الكتاب نستطيع أن نحدد إلى أى مدى تأثر رجال العصور الحديثة بالأفكار الاسلامية . ويخيل إلينا أنا أول من تنبه إلى هذه العلاقات التاريخية ، وقد حققناها فيما يتعلق بنظرية النبوة [٣]

ويمكننا أن نلاحظ كذلك وجوه شبه بين نظرية السعادة الفارابيـة وبعض الأفكار الصوفية الحديثة ، وخاصة لدى اسبينوزا الذى تربطه بالفارابى أكثر من علاقة واحدة . فكلاهما يعد السعادة غاية لمذهبه الفلسفى ؛ ويعملان على تحقيقها بوسائل متماثلة . وكلاهما صوفى النزعة فى سلوكه وآرائه ، وتصوفهما عقلى نظرى مبنى على العلم والدراسة . ونظريتهما الكلامية متقاربة ومتشابهة ؛ فصفات البارئ عند الفارابى لا تختلف كثيراً عنها لدى اسبينوزا . الله فى رأيهما علم ومعلوم وعالم فى آن واحد ، وهوية وماهية معاً ؛ هو مسبب الأسباب والجوهر المطلق أو الجوهر الوحيد [٤] . فهو موجود بنفسه وجودا أزليا قديما ، وكل الكائنات تستمد جودها منه . وعلى هـذا نرى أن الفيلسوف العربى والفيلسوف الاسرائيلى يقولان بمذهب وحدة الوجود . وإذا كانت النفوس البشرية قد استمدت وجودها من الله فهى دائما فى نزوع اليه ؛ وكمالها فى أن تتجه نحوه وتقترب منه وتحبه

(١) Quignes Le Chartreux, Méditations, I I et V.

(٢) Gilson, L'Esprit de la philosophie médiévale, t. I, pp. 65 — 85.

(٣) مذكور ، الرسالة ، العدد ١٦٨ ص ١٠٢٧

(٤) Gilson, Archives, t. IV, p. 74. انظر الرسالة أيضاً (١٦٨) ص ١٠٢٤

(٥) Carra de Vaux, Les penseurs de l'Islám, t. IV, p. 73.

(١) Madkour, Le place d'al Fârâbi, p p. 206 — 209.

(٢) Madkour, La place d'al Fârâbi, p p. 208 — 209

(٣) نشير هنا إلى بحث طالما نشر قبل ؛ وربما وفقنا لنشره على صفحات الرسالة

(٤) Spinoza, Ethique, II ch. 7.

حبا صادقا . وهـذا هو الحب الفلسفى الذى يتغنى به اسپينوزا ، ويرى فيه لذة لاتنقطع وغبطة تجل عن الوصف [١]

الآن وقد تتبعنا نظرية السعادة الفارابية منذ نشأتها الى أن أسلمناها الى العصور الحديثة نستطيع أن نقرر أن المشائين من العرب أثروا فيمن جاء بعدهم تأثيرا واضحا . فأفاد منهم مفكرو الاسلام لا فرق بين متطرفيهم ومعتدليهم فى نواح كثيرة ، وإن تحاملوا عليهم وحاربوا معظم نظرياتهم . وأخذ عنهم رجال الفلسفة المدرسية من يهود ومسيحيين كثيرا من آرائهم وأفكارهم . ولم يقف أثرهم عند القرون الوسطى بل تعداها الى العصور الحديثة ، وقد أوضحنا فيما سلف وجوه الشبه بين بعض النظريات الفارابية والآراء الأسبينوزية ، نحن لا ندعى طبعا أن الفلسفة الاسلامية أثرت تأثيرا مباشرا فى رجال العصر الحديث وجماعة الديكارتيين بوجه خاص ؛ فان أحدا منهم لم يعرف العربية . ولكن الأفكار الاسلامية نفذت اليهم ، فيما نعتقد ، عن طريقين : طريق اليهود وطريق المسيحيين ، ففيما كتب موسى بن ميمون مثلا أو سان توماس ما يحكى بعض الأبحاث الاسلامية . وإذا كانت الفلسفة الاسلامية نفسها لا تزال غامضة ومجهولة ، فبديهى أن يبقى أثرها فى طى الخفاء ، ولا سيما إذا كان هـذا الأثر متعلقا بناحية يزعم الناس أنها بمنأى عن التأثر . فقد شاع خطأ أن ديكارت يفصل فصلا تاما بين عهدين ، وأنه أب لفلسفة لا تحمل فى ثناياها شيئاً من آثار الفلسفات السابقة ، غير أن هذه الفواصل المزعومة بين العصور قد انمحت ، وهذه السدود القـامة باطلاً بين مراحل التفكير الانسانى قد انهارت . وقد ثبت فعلاً أن ديكارت سبق الى كثير من أفكاره فى القرون الوسطى المسيحية ، كما أن مذهب ليبنتز مثلاً يقترب من الفلسفية المدرسية والاغريقية بقدر قربه من النظريات الديكارتية [٢] . فلم لا نحاول بدورنا أن نوازن بين شك ديكارت وشك الغزالى ؟ ولم لا نبحث عن أصل للتفرقة الاسپينوزية بين الذات والوجود عند الفارابى كما بحثنا عنه لدى كثير من الفلاسـفة المتقدمين ، إنا إن فعلنا خـدمنا القرون الوسطى والتاريخ الحديث ، وألقيناجزءاً من الضوء على طائفة كبيرة من النقط الغامضة ، وقمنا بقسطنا فى ربط الفلسـفة الاسلامية بسلسلة التفكير الانسانى

ولنا رجاء آخر ، وهو أن تتجه الجهود نحو العصور المتأخرة من تاريخ الثقافة الاسلاميـة ؛ فان ما كتب عنها لا يكاد يذكر ومعلوماتنا عنها محدودة للغاية . وقد حاول هورتن فى أبحاث متفرقة أن يوضح جانبها الفلسفى ؛ إلا أن أبحاثه غير ناضجة ، وهى أشبه ما يكون بمقدمات لدراسة كاملة لم تبـدأ بعد . وأما اللغة والتشريع والتوحيد والتصوف فلا تزال فى طى الكتمان تماماً . ومن غريب المصادفات أن أحد قراء (الرسالة) بعث إلينا ، ونحن نكتب هذه الكلمة ، مستفسراً عن بعض أبيات للصوفيـة المتأخرين . فالجمهور المثقف يشعر إذن بهذا النقص ويشاركنا فى الشكوى منـه ، ولعل أغمض شىء فى هذا الدور حقيقة هو تاريخ التصوف على الرغم مما فيـه من طرافة ، وما له من أهمية اجتماعية وفلسفيـة . نحن لا ننكر أن عصور الظلام ثقيلة على النفس وليس فيها شىء كثير يجتذب الباحث أو القارئ ، هذا إلى قلة مصادرها وتعـذر السير فيها والاهتداء الى معالمها . بيد أن ربط حاضرنا بماضينا يستلزم أن نجلى غامضها وندرسها دراسة كافية .

ابراهيم بيومى مدكور

تصويب

جاء فى مقال الدكتور المنشور فى العـدد الماضى ص ١٦٥٤ « وإذا كان الغزالى هو أكبر خليفة لأبى موسى الأشعرى » وهو سهو قلمى ، والصواب : « أبو الحسن الأشعرى » كما لا يخفى

صدرت الطبعة السادسة من كتاب :

تاريخ الأدب العربى

فى جميع عصوره

بقلم الأستاذ أحمد حسن الزيات

وهذه الطبعة تقع فى زهاء خمسمائة صفحة من القطع المتوسط ، وتكاد — لما طرأ عليها من الزيادة والتنقيح — تكون مؤلفاً جديداً

الثمن ٢٠ قرشاً عدا أجرة البريد

(١) Bréhier, Hist. de la philos. t. II 159

(٢) Blanchet, Les antécédents hist. du « Je pense donc je suis » Paris, 1920.